

أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية "لا مكان لي في بيت أبي" لآسيا جبار

أنموذجا

**The identity crisis in the Algerian novel written in French
"There is no place for me in my father's house" by Asia Jabbar as
a model**

شهيرة زرناجي¹، فوزية دندوقة²

¹ جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)، fz.dendouga@univ-biskra.dz

² جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)، chahira.zernadji@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2021/08/27 تاريخ القبول: 2022/06/29 تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص: يأتي هذا المقال للكشف عن ذلك الشعور المرتبك والذي يعبر عن جانب من مشكلة الهوية التي يعانيها العربي، وأي عربي؟ العربي المثقف الذي وجد في الفرنسية بديلا تواصليا يأوي إليه كلما عنت الأفكار بذهنه، وكلما تزاخمت العبارات على لسانه.

ولا شك أن الهوية المتأزمة متمثلة في النموذج الاجتماعي الذي يعدم شروط الانسجام، فيختل موقع الفرد في نظام العلاقات الاجتماعية، شعورا بالغيرة والاعتراب، والتأمل بعمق في الأشكال الحقيقية لمظاهر العلاقات الإنسانية يكشف بحق هذا الشعور ويستشعره. كلمات مفتاحية: ثقافة؛ عربية؛ فرنسية؛ لغة؛ هوية.

Abstract:

This article comes to reveal that confused feeling, which expresses an aspect of the identity problem that the Arab suffers from, and which Arab? The educated Arab who found in French a communicative alternative to which he would come whenever the thoughts were on his mind, and whenever the phrases crowded on his tongue.

Undoubtedly, the crisis identity is represented by the social model that lacks the conditions for harmony, so the individual's position in the system of social relations is disturbed, with a feeling of alienation and alienation, and a deep contemplation of the real forms of the manifestations of human relations truly reveals and senses this feeling.

Keywords: culture; Arabic; French; language; identification.

مقدمة:

أثار ت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية جدلا كبيرا في أوساط الأدباء والمثقفين، حول نسبتها إلى الأدب الجزائري، نظرا لأنها خطابات تفتقر إلى أهم مقومات الهوية الجزائرية، وهي اللغة العربية، ويزداد الجدل حدة، والإشكالات تفاقما، عندما تطرح هذه النصوص مشكل الانتماء، فتعبر عن أزمة هوية، حيث تصبح لسان صاحبها عن رفض جذور انتمائه.

وللمعالجة هذه القضية التي أسالت كثيرا من الحبر في الدراسات الأدبية الحديثة نتخذ من رواية آسيا جبار (لا مكان لي في بيت أبي) أنموذجا للبحث والتحليل، مستنديين إلى المنهج التأويلي الذي نقرأ من خلاله ألفاظ الروائية وعباراتها، ونكشف من خلاله عن أزمة انتماء يلوح بها العنوان من بعيد، فيعضدها الخطاب الروائي بين الدفتين.

ليس لآسيا جبار مكان في بيت أبيها، ترفض الروائية هذا الانتماء الأبوي الأول، تعبيرا عن رفضها لانتماء اجتماعي بأسره، فهو العالم المتخلف المتقهقر المتمزمت المغلق الذي ليس فيه ما يغري امرأة عاشت في فرنسا أن تكون عربية، ولأن النص يعرب عن هذه الأزمة بدءا بأول عتباته حاولنا الكشف فيه عن مظاهر هذه الأزمة وتمثلاتها، إجابة عن الإشكالية التالية (ما هي ملامح الهوية المتأزمة في رواية آسيا جبار؟)، وللإجابة عن هذا التساؤل الجوهري حاولنا بداية الإجابة عن تكون آسيا جبار، ثم قدمنا ملخصا موجزا للرواية، وأشرنا بعدها لقدرة هذا النوع من الخطابات على استيعاب الفكر الإنساني وأيديولوجياته المختلفة، كل ذلك في محاولة لكشف الأزمة التي انفجرت من الخطاب الروائي محل الدراسة.

من هي آسيا جبار؟

آسيا جبار هي كاتبة روائية وسينمائية وكاتبة مسرحية. اسمها الحقيقي فاطمة الزهراء إملان ولدت في 30 جوان 1936 في شرشال بالجزائر وتوفيت 2015/02/06 في باريس عن عمر يناهز 78 سنة. وهي كاتبة وروائية جزائرية تكتب باللغة الفرنسية، وكتبت عديد الروايات والقصص، والأشعار والمقالات كما كتبت للمسرح، كتبت أول رواية لها: العطش ولكي لا تصدم عائلتها تبنت اسما من أسماء الريشة: آسيا وهي السلوى **Consolation** وجبار **L'intransigence** أو العناد. في الفاتح من شهر جويلية من سنة 1962 عادت للجزائر كأستاذة في جامعة الجزائر وهي الأستاذة الوحيدة التي تدرس التاريخ الحديث والمعاصر في الجزائر

وفي هذه الفترة الانتقالية فترة الاستقلال، طرحت مسألة إجبارية التدريس باللغة العربية إلا أنها رفضت هذه المسألة وتركت الجزائر.

آسيا جبار كفاءة كتابية، وقلم نسوي مدافع عن المرأة بشراة في فترات تاريخية مهمة من تاريخ الجزائر، فقد كانت كتاباتها محرمة ومنشطة للذاكرة والأرشيف (Berque, 1980, p125). لقد بينت سبب اتجاهها لعالم الكتابة قائلة: "لماذا أكتب؟ أكتب ضد الموت، أكتب ضد النسان، أكتب أملا في ترك أثر على الرمل المتحرك، أو على الغبار الطائر في الصحراء" (1986, p86, Djebbar). كانت هذه فلسفة جبار في الكتابة، فقد مزجت بين التاريخ والسيرة الذاتية والكثير من الخيال الذي انتقل من الوعي إلى اللاوعي بلغة أكاديمية عالية هي لغة الآخر. ولقد شرحت اختيارها للغة الفرنسية وقبولها لهذه الثنائية الثقافية قائلة: "أصبحت علاقتي باللغة الفرنسية اليوم أكثر وضوحا، ولقد كتبت بها لأنني اخترتها لا لأنني واقعة تحت الاستعمار الفرنسي" (Chikhi, 1989, p37).

لقد جسدت في هذا الاختيار كل المتناقضات بين ثقافة غربية وانتماء بربري، وبين الواقع وما بقي فيه من ذكريات المدرسة القرآنية وتعلق في هذا الصدد بأن التربية التقليدية التي تلقتها من عائلتها فتحت مداركها على العالم، وتعاملها مع المدرسة الفرنسية العصرية في الأربعينات 40 لم يحج تربيتها الدينية التي تلقتها من المدارس القرآنية.

ويمكن تصنيف نصوص آسيا جبار ضمن التوجه الإنساني للمدرسة الفرنسية. يقول جمال الدين بن شيخ أن هناك من الروائيين المثقفين من يختار بين ثقافتين اثنتين كآسيا جبار ومالك حداد من بين هؤلاء الذين كتبوا قالب الرواية النفسية (Chikh, 2000, p19).

لقد تجاوزت الكتابة النسوية لتمدنا بأحسن وأفضل جدارتين عن الجزائر إبان حرب التحرير. وجمعت آسيا جبار بين كلمات الحب باللغتين البربرية والعربية في سياق مخضب بدماء الأجداد. "علاقتها باللغة الفرنسية حركت فيها ذلك الغموض لحب متعارض مبهم" (محمدخضير، 1967، ص142).

برعت في عرض نموذج الفتاة البرجوازية بمشاعرها وأحاسيسها وثورتها على التقاليد فقد أعطتنا رواياتها صورة واضحة المعالم عن تقاليد الأسرة الجزائرية فقد تكلمت في قصصها عن سلطة الأب والدين والتحكم في مصير المرأة.

نلمس في أدب جبار اتجاهان يتصارعان داخل منظومتها السردية فمن جهة تحاول المحافظة والتمسك قدر الإمكان بالماضي والأصالة والهوية والدين ومن جهة أخرى تفتتح على كل جديد خلفته الظروف المحيطة والبيئة التي يعيشها الشعب الجزائري خلال تلك الفترة (محمدخير، 1967، ص142).

بينت تقاليد أسرتها من خلال أعمالها القصصية نفسية الكاتب أيا كان والمرأة خاصة ستتجسد في قلمها. هذه الهموم أبعدها نوعا ما عن القضية الوطنية في رواياتها الأولى و من خلال الكتابة باسم مستعار دليل قاطع على السلطة التي مارسها الآخر على الأديب والكاتب كما وقد عكست رواياتها سيرتها الشخصية بكل همومها ومكبوتاتها ونورة، دليمة، عائشة، حفصة، وغيرهن ما هن إلا تجسيد للاوعياها الرافض جدا لتلك العقليات المحنطة الجافة ولكن هؤلاء جميعا يقفن في منتصف الطريق تتنازعهن جملة من الضديات كالأصالة والتجديد، الحرية وكنف العائلة أو الزوج أو سلطة المجتمع ... فهن بطالات سلبيات.

ولقد بدأت جبار حياتها الأدبية بنشرها لبعض المقالات والقصص القصيرة الصحفية في جريدة 'L'action، Jeune Afrique. نشرت أول قصة لها عام 1957 بعنوان La soif ثم نشرت قصة Les impatientes والتي اعتبرتها أحسن قصصها. وقد برعت جبار في عرض نموذج الفتاة البرجوازية بمشاعرها وأحاسيسها وثورتها على التقاليد والتي لا تتعدى مجرد التفوه ببعض الاعتراضات على مواقف معينة يملئها الأب أو الأم.

ومع ذلك فقد أعطتنا صورة واضحة المعالم لتقاليد الأسرة الجزائرية. سلطة الأب والدين ومصير الفتاة الذي يتقرر بعيدا عن إرادتها. والأسر التي ترسمها تعيش في دائرة خاصة بها وكأنها لا تحس بما يدور حولها من أحداث. ومن الغريب أن تصدر قصة في عام 1957 ولا تتعرض فيها الكاتبة لأحداث الحرب: كالعطش والجازعون. ثورة بطلاتها على التقاليد ليست واضحة المعالم ففي روايتها (Il n'ya pas dexil) البطلة دليمة مترددة ولا تستطيع كسر القيود ولم تزر الجزائر سوى مرة واحدة تقريبا وذلك خلال النزاع الدامي الذي شهدته فترة التسعينيات الـ 90 بين الأمن والجماعات الإسلامية المسلحة وذلك لتشيع جنازة والدها.

في أوج الحرب الأهلية التي هزت الجزائر كتبت عن الموت أعمالا روائية أخرى منها (الجزائر البيضاء) - (وهران لغة ميتة)، وبعيدا عن مناخ الحرب ومن أجواء الحب المتخيل كتبت رواية

(ليالي ستراسبورغ). وقد كتبت هذه الرواية هربا من وجع الموت الجماعي الذي شهدته الجزائر وعلاجها نفسيا داوت به غربتها وآلامها.

آسيا جبار أول كاتبة عربية تفوز عام 2002 بجائزة السلام التي تمنحها جمعية الناشرين وأصحاب المكتبات الألمانية وقبلها الكثير من الجوائز الدولية في إيطاليا، و.م.أ، بلجيكا، وفي 16 جوان انتخبت من بين أعضاء الأكاديمية لتصبح أول عربية وخامس امرأة تدخل الأكاديمية. وأول بروفيسورة في الأدب الفرنكوفوني في جامعة نيويورك وقد رشحت لنيل جائزة نوبل في الآداب عام 2005.

أزمة الهوية في رواية لا مكان لي في بيت أي ملخص الرواية:

كانت آخر رواية تكتبها، تتنبأ فيها بالموت وهي في العقد السابع من العمر فتقول على لسان كاثلتين راين: "جئت من بعيد وعلي أن أذهب بعيدا". تنقسم هذه الرواية إلى ثلاثة أقسام:

- 1- طفولة متشظية، ترى هل الطفولة سر خفي لا يسمع أم غبار الصمت ؟
- 2- تمزق المحجوب، والشباب الفائر، وأزمة الهوية:
- من ذا الذي في أذني يصغي إلى صوتي؟
- من ذا الذي ينطق بكلمات من فمي؟
- من ذا الذي في عيني يستعير نظرتي؟
- ما هي هذه الروح إذن التي أنا لباسها؟
- 3- تشاؤم، حزن، وخريف عمر:
- تلك التي تجري صوب البحر لتغرق.

طفولة متشظية :

"إن شيئا ما من هذا الماضي يدور في ذاكرتي ويمسي جرحا وخدشا". (جبار، 2016، ص61)
لقد ذكرت موقع قريتها التي تقع عند سفح جبال الأطلس وسط منطقة كروم في أوج ازدهارها.
وصفت والدها: "كتفين عريضين، وعينين خضراوين" (جبار، 2016، ص54).

وصفت والدتها قائلة: "أخت صديق العمر، البنت المدللة للأسرة، الأكثر نبلا في المدينة، التي زفت مع ذلك النجل الفقير، أي العامل البسيط " (جبار، 2016، ص121).

تسرد ثورتها ضد والدها، والتي بدأت حينما منعها من ركوب الدراجة بساقيين عاريتين وهي لا تزال طفلة، إلا أنها لم تهتم بهذا المنع بل ضربت كل تحذيراته عرض الحائط: "أجل أنا حرة ورجلاي لا تحملاي أو تجعلاي أركض فحسب ... أنا على حق، قد انتصرت، وفي مقدوري أن أركب دراجة وإظهار ساقاي ورجلي وركبتي، وحتى فخذي " (جبار، 2016، ص75).

تحدث عن (موريس) ابن المعلمة، الأرملة والذي علمها ركوب الدراجة. تصف الحمام الذي كانت تتردد إليه هي وأمه، وتتكلم عن مدى تقديس كل النساء لأمها، وتصف جمالها حتى وهي ترتدي الحايك.

وفاة الأخ الأول الصبي ذي الستة أشهر، هذا الفقدان الذي جثم في مكان حالك من حينها للطفولة.

تتكلم عن حبها للموسيقى، وعن آلة البيانو، كون أمها تفضل سماع الألحان الأندلسية التقليدية، إلا أن قسوة أستاذة الموسيقى جعلتها لا تستمر في هذا التوجه.

2- ترى هل الطفولة سر خفي لا يسمع أم غبار الصمت ؟

تصف صديقتها الأولى (ماق) بقولها: لقد كانت من خلال الكتب الصديقة الأولى بامتياز" (جبار، 2016، ص177).

وتصفها بالمواطئة فمعها عرفت فلتاتها الأولى. تصف صديقتها (فريدة) التي كانت تقطع المدينة كلها تحت حايك من صوف، إلا أنها وبعد عشرين سنة التقت بها في فرنسا، وهي متحررة تماما بل وأكثر من الروائية نفسها. وتصف قاعة الأكل (التي تميزت بانقسامنا إلى طائفتين لاسيما فيها يتعلق بوجباتنا ومحظوراتنا الغذائية) (جبار، 2016، ص201).

ففي أعياد المسيح يتناولون لحم الخنزير مع كرنب مفروم مما دفع بالطالبات المسلمات إلى التمرد والإضراب الذي قادته (مسعودة). كما تصف صديقتها في المرقد (جاكلين) التي تحتفظ بمظهر السيدة الصغيرة، لا تبتسم ولكنها تظهر الثقة بالنفس. تصف الرياضات التي كانت تمارسها (الجمباز، كرة السلة)، كما تصف ملابسها الرياضية وهي في القمة حريتها وتحررها. تصف كذلك الفساتين التي كانت ترتديها وخاصة ذلك الفستان المنور مكشوف الرقبة والكفتين مع قميص

فضفاض، كما تصف الأعراس الصيفية للعائلة، وكيف تتحرر بلباسها ورقاصاتها ضاربة عرض الحائط كل تعليقات النساء من حولها.

قلة ثقة والدها بها وتمزيقه للرسالة التي كتبت لها من قبل شاب يطلب منها تبادل الرسائل، رغم غضب الأب ومعرفته للرسالة إلا أنها تواصل مراسلاتها معه، تطلب منه أن يكتب على ظهر الظرف اسم زميلة لها (بياتريس) تواصل دراستها في الجزائر، وتدعي في نهاية الفصل أن والدها لا يمانع لو تراسلت مع شاب من الطائفة الأخرى .

كما أنها لم تخبر والدها بالسفر مع لاعبات فريق كرة السلة للمشاركة في مقابلات الثانويات كيف لا وقد مارست الرياضة أصلا بدون علمه. لأنه أصدر قانونه الحاسم "لا يمكن لفتاة مسلمة أن ترتدي التبان إلا في الملعب الداخلي للمؤسسة." (جبار، 2016، ص339)

تقبل المواعدة مع (طارق) الطالب العاصمي الذي يرأسها، ويتبادلان أطراف الحديث باللغة الفرنسية (لأن الفرنسية حيادية جدا، ستكون لي مثابة حجاب." (جبار، 2016، ص344)

لماذا تضل الكاتبة تخشى هويتها ولغتها وتحاول في آخر عمرها استرجاعها لقولها: "ثم تسرد انتقال الأسرة للعيش في الجزائر العاصمة لمتابعة دروسها بالجامعة وتقبل الأب فكرة متابعة ابنته لدروس الآداب العليا في ثانوية الفتيات الكبرى، وتحول أمها إلى غريبة ذات أناقة خفية وهي في الستة وثلاثين سنة من عمرها وتم نكاحها طي الحايك الممل (الذي كان يلزمها حتى في السيارة). (جبار، 2016، ص389)، ثم تسرد حياتها في معهد تحضير المعلمين بالعاصمة وكيف زال سوء تفاهمها مع زملائها وكلامها باللغة الفرنسية والذي يزيد من احترامها لدى الجميع." (جبار، 2016، ص410).

تشاؤم، وحزن، وخريف عمر:

كانت بقية الرواية نظرة تشاؤمية فلسفية ووجودية "التحليل الذاتي يأتي متأخرا جدا منذ أكتوبر 1953، أي أن بحرا من السنوات انقضى." (جبار، 2016، ص499)، لقد رجعت بالذاكرة إلى سن الطفولة الأولى حين أحست بالوحدة وسخرية أمها عليها رغم أنها اشترت لها شيئا ما سرعان ما ضاع منها ثم تسرد حكاية صديقتها (جميلة) التي كانت تحسدها على ثقة والدها بها والتي لم تنلها أبدا، ثم تبين خيانة من ائتمنت صديقها طارق وصديقتها منيرة.

وفي شارع (سادي كارنو) ها هي تحاول الانتحار "هاهي السكة الحديدية؟ سأنام عليها سينتقق كل شيء بسرعة ... في الثانية الأخيرة تصورت جسدي مقطوعا... إلى ثلاثة." (جبار، 2016، ص66) ، ولم تنس أبدا صوت ذلك السائق الذي أنقذ حياتها ...

تسرد الكاتبة حيرتها الوجودية عقب طلاقها الثاني لتلجأ أخيرا (للقرآن الكريم) بالأخص الآية الكرمة ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (سورة النجم/ الآية 39) وتكررها مرتين على التوالي . ثم تلخص علاقتها بالرجل في كامل حياتها قائلة: "كان الذكر قبالي يندثر بجميع مظاهر الغرور والبحث عن النجاح". (جبار، 2016، ص476)، كما تسرد علاقتها بزوجها قائلة: "... إلى أن أتضامن وأحافظ على الزوج من الخارج إلى محاولة إصلاح العيوب، والثقوب كل هذا من أجل قصة حب مزيفة لمراقبة استنزفت بعد سنوات عديدة" (جبار، 2016، ص476).

إذن فشلت في زواجها الأول والثاني وكأنها قصة مزيفة استفاقت منها وتكرر لازمة (لا مكان لي في منزل أبي) دليلا لقمة الألم وقمة الأسى والضياع، وأزمة الهوية بدأت من أول صفحة لآخرها (كانت تراني منفية حتى وإن كان والداي يعيشان هناك وإن كنت أعود إلى البلد كل الصيف) (جبار، 2016، ص476). علمت في الأخير أنها متهمه من قبل عقلها أو تهورها. هي نادمة على الإحدى والعشرين سنة من جمود قصة الحب الحقيقية وربما يجب عليها أن تضيف السنوات التالية وأن تحسب بالعقود (جبار، 2016، ص97).

ثم تلخص تجربتها في الحياة قائلة: "إن الكتب والقصص والنظريات... وكل هذا الغليان لم يفدك إذن في تحفيزك، ولا في تحذيرك أو تطهيرك ... إنما أفادك فقط في تحذيرك وحملك على القرار أمام دخان الميخال والذوبان. (جبار، 2016، ص497)

"... وجميع رواياتك وأشعارك وكلامك الجاف على الورق لم يكن سوى ترياق تافه وفرار لا يعترف به." (جبار، 2016، ص501)، وتستمر غربتها: "أصبحت عديمة المكان هناك لا لأن الوالد قد توفي منهوكا في في بلد يقال أنه تحرر ..."، هذا الزمن كله يصعد في الدموع ... أنا أتألم لأن سائق الترامواي في ذلكم الصباح على شارع سادي كارنو لم يترك آتته الزاحفة بسرعة تواصل انطلاقها ... (جبار، 2016، ص506)، لم أصح بعد من أي هذيان ومن أي سحر لأبقى بلا حيز في منزل أبي." (جبار، 2016، ص509).

أسئلة وجودية وفلسفية مفادها الندم، الرغبة في الذوبان أو الطيران، العيش نهائيا هناك في مكان آخر خلف الأفق وتقصد هنا الموت. الوحدة تلفك من جديد أخذ البنيان كله يرتج ويميل مثل برج بيزا، كي تعيدي العارضة إلى سابق استقامتها في اللحظة الأخيرة." (جبار، 2016، ص517).

أخذت تفرين من الآخرين أو الآخر الذي ظننت أنك أعطيته الكثير وتخدم روايتها قائلة: "أخيرا أنت وحدك بمعية ذاكرتك المفتوحة تتطهرين* بكلمات من غبار وجرم وتسيرين موشومة دون أن تدري إلى أين" (جبار، 2016، ص519).

الرواية في استعابها للأيدولوجيا:

إن أشهر الأجناس الأدبية التي كتب بها هؤلاء هي الرواية. والرواية كما نعلم من (الأجناس الأدبية المهيمنة نظرا لمضامينها الرئيسية ومحتواها الثقافي وهذا ما جعلها من الأشكال الأدبية التي تطمح للعالمية لأن جذورها كالأيدولوجيات المتطورة" (Chikh, 1994, p20)

والرواية فن قصصي نثري يصور شخصيات، وأحداث، وأفعال، ومشاعر، وهي شكل أدبي جديد لم تعرفه العصور الكلاسيكية والوسطى، ونشأت مع بواكير البرجوازية وما صاحبها من تحرر، وهي بديلة عن فن الملاحم وتعتبر رواية دونكيشوت لسرفانش أول رواية فنية في أوروبا لأنها اعتمدت المغامرة والفردية.

إن الأعوام التي أعقبت الاستقلال مباشرة أظهرت ركودا روائيا جزائريا هذا الأدب كان موجها للآخر (المستعمر ذلك الذي رحل لكن بداية من (1968- 1969) شهدا ميلادا ثان للرواية الجزائرية خاصة، والمغربية عامة، ويظهر ذلك من خلال الكم الهائل من العناوين الروائية التي (تعبّر عن لحظة تاريخية من التحويل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي). (محمدخضر، 1967، ص152).

وتقول الكاتبة هنا، "أن محمد ديب وكاتب ياسين يختلفان عن كامو وأوديسيو لأنهما يعيشان في فرنسا فهما إذن حسب قولها غرباء، ويعتبرون أنفسهم أفرادا من الجزائر" (محمدخضر، 1967، ص125). لكن هل غربة الجسد هنا تنفي الهوية والانتماء إلى الوطن وربما الكاتبة هنا تتناسى روائع هذين الكاتبين وآخرين الذين خلدتهم الذاكرة الدينية والوطنية والعالمية ويمكن إجمال خصائص الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية في الآتي:

- 1- يستغرق الأحداث الهائلة التي عاشتها الجزائر في فترة الاستعمار.
 - 2- تعبر عن الثورات والانتفاضات المتعاقبة والتي تحولت إلى حرب تحريرية انتهت بالانتصار.
 - 3- متحيزة تعبر عن أيديولوجية ولدت مع الصراع.
 - 4- تعبر عن الأفكار والمفاهيم التي تدور في أذهان القادة، وصناع التاريخ.
- ويمكن أن نحمل أن هؤلاء الكتاب قد تأثروا بالأدب الفرنسي الذي يعتبر أدب التقاليد والواقعية و العريقة وبلد القصة الاجتماعية التي كتبها بلزاك وستاندال وولويير وزولا وغيرهم ... ولكنها في ذات الوقت فرنسا التي قدمت للعالم أنصار الفن للفن، وقدمت فنا يكافح ذلك الفن الجديد ويهاجم انتصاراته الواقعية في الأدب، كما تدل على ذلك أشعار السريالية وقصص بروس واندريه جيد ومالرو والوجوديين وكذلك أصحاب مدرسة القصة الحديثة.
- وتحت تأثير التحولات السياسية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع الفرنسي بطروفه التاريخية الخاصة وفي غمرة كل ذلك تتطور تقاليد الواقعية الاشتراكية في الأدب الفرنسي حاملة خصائص المجتمع الرأسمالي التي نراها في قصص أراغون وستيل وغيرهم (محمد خضر، 1967، ص127).
- ولقد ساهم هؤلاء في بناء مجتمعهم وإعداد العدة لمستقبله، وهكذا فعل ثلة من كتاب الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية فقد قدموا قصصا بلغت مستوا عال من حيث الشكل والمضمون ومن حيث الموقف الفلسفي والمبادئ الفنية.
- نذكر منهم قصة البيت الكبير لمحمد ديب، الهضبة المنسية لمولود معمري، الأرض والدم وابن الفقير مولود فرعون. هؤلاء الكتاب أسسوا لفكرة أن اللغة قبل أن تكون وسيطا تعبيريا فهي عتبة الولوج إلى الهوية* الجمعية والإحساس بها وبتأزماتها.
- وقد كان للترجمة الدور الكبير في نقل هذه الأحاسيس وهذه الأزمة الوجودية. فما هي؟
- وقعت آسيا جبار في أزمة هوية شديدة، منذ نشأتها الأولى فقد وجدت نفسها في بيئة فرنسية من الطراز الأول، الجميع يتحدث الفرنسية، أب يدرس اللغة الفرنسية، أم بجذور برجوازية، مستعمر ينجح في استقطابها نجاحا كبيرا، تغربت منذ البداية إلى النهاية وتلمس هذه الغربة في ثقافتها الأجنبية الكتب التي طالعت الصداقات التي عاشت، تربيتها المفتوحة ضف إلى ذلك السماح لها بالدراسة في المدارس الداخلية معية بنات أجنبيات مما فتح أفقها أكثر فأكثر.

ويظهر ذلك جليا في استحضار ثنائية الأنا/الآخر بشكل لافت للنظر، وبصورة واسعة في الرواية، لكن الأنا في روايتها لم تكن لتظهر في شخصية مزهو بها، أو مرغوب فيها، فالكاتبة تجعل هذه الأنا جزءا لا يتجزأ من (هؤلاء)؛ أي مجتمعا وعاداتها وتقاليدها ... وهو المجتمع الأجنبي عنها، الأقل شأنا، الأمي والجاهل والمتعصب، والحاسد لكنها لا تجدد مفرا منها وثمة مكن مأزقها، وأزمة هويتها.

فالكاتبة تعاني الاغتراب، وهي فكرة تقوم على أساس التمييز بين وجود الإنسان وجوهره وأن "وجود الإنسان بصورته التي نراه عليها في المجتمع الحديث لا يتفق مع جوهره أو ما هو من حقيقته" (حجازي، 1980، ص68)، ويمكن تلخيص أكثر العبارات بروزا في رواية آسيا جبار والتي تدل على ثنائية بائسة تحضر فيها الأنا كجزء من مجتمع مبتذل في مقابل الآخر الذي يدل على الرقي والفكر المتفتح فيما يلي: "كنت أخشى (عينهن) المتفحصة الشبيهة بعين طير جارح... العمال المتلصصين... الحاسدين... أولئك الجذور الذين لا مفر منهم... حجابهن المصنوع من الصوف... ربما هناك شخص ما سيأتي ليقدم لهن المال لاقتناء تذكرة... الأطفال الشحاذين الذين ينظرون إلينا بصمت... المقاهي العربية المكتظة والصاخبة... راعتي النظرات اللامعة لذوينا هؤلاء القرويين الممنوعين من التقدم كقطعان من الثعالب... المنطلقون والمرتمون نحو الأمام ويخسرون المعركة... حثالة عمال، يأتون إلى المدرسة منتعلين أحذية قماشية وأحيانا يأتون حفاة" (جبار، 2016، ص37).

فالروائية لا تصفهم إلا بكل دوني حقير، مثير للاشمئزاز، وتصف الآخر بعكس ذلك تمام، فهو الفرح، وهو مصدر الفكر، وكل راق وجميل، تقول: "الأزواج الراقصين دون كلل... هؤلاء مصدر الفكر والحضارة والقيم... العديد من الحانات الأوروبية بمرايا عالية جدا، وثريات تبهرني... ولتذهب الأعراف المنافقة إلى الجحيم... الأزواج الأجانب المتعانقين بهذا الشكل للرقص" (جبار، 2016، ص325).

إن هذه المقابلة في الوصف المتناقض، تبرز ازدياد الذات، وتنبذ انتماءها وجذورها، لأنها ترى في هذه الذات ملامح التخلف والتقهقر، وتتطلع إلى عالم غربي نعتته بالتحضر والتمدن، وفي هذه الأوصاف والنعوت التي تشحنها الكاتبة بآلامها وأمالتها تعبير عن أزمة هوية نابعة من

إحساس بالغرابة، وتوق إلى الانتماء والانسجام، فعدم الانسجام "مع المجتمع وعدم الرضا بالعوادات والأعراف، والمخالفة في الفكر والمعتقد" (الجبوري، 2008، ص68) هو ما يصنع تلك المواقف الاغترابية الصادرة عن الإنسان.

تؤكد الكاتبة التي تشعنا بأزمة هويتها أنها حاملة بعالم أفضل، رسمته بأحرف فرنسية، فكان عالماً غربياً، دوت في سمائه أسماء نابعة من الثقافة الفرنسية، مقابل تلك الأسماء العربية التي لا تعبر غالباً إلا عن بؤس ويأس، فقد تكرر في رواية آسيا جبار ذكر (غياتري، وجاكين، وماق، وترينادر، وكاثلين راين، وموريس ابن المعلمة الأرملة، وشارل بودلير، والسيدة بلازي، وسيمسون فرانسوا، وموزار، وجاك ريفيار، والان فوري، وجيد...)، في الوقت الذي قلت فيه الأسماء العربية كـ(علي الصحرابي، وفريدة، ومسعودة، والطاهر، وطارق، ومنيرة)

تصف الروائية مجتمعها الأصلي بصفات لا تتوانى عن تكرارها رغم دلالاتها القاسية، لأنها ترى فيها قدرة كبيرة على التعبير عن قساوة المجتمع العربي وانغلاقه، إنها تصفه قائلة: "المجتمع النسائي المنذور للانغلاق" (جبار، 2016، ص269)، تكثر مثل هذه العبارات في الرواية، لترسم صورة المجتمع العربي البائس، في فسيفساء لغوية عمادها ألفاظ ك: (المخيال - منذور - منتصب - انحباس - يغبط - متواطى - مقرضة ... الخ).

تقول آسيا جبار: "منذور: ب المقطعة على هذا النحو منذور للرمي.. وحتى وإن كان منذورا للشيخوخة... بل سيهمس وبغير تواطؤ... سوى شبح متواطى." (جبار، 2016، ص158). فدلالة القول الروائي تفصح عن وضع هوية متأزمة، يخنقها العالم العربي بصفاته، ومعتقداته، فكانت الفرنسية مهرب الكاتبة ومتنفسها لتحلق في عالم تحلم به، وتتمنى أن تصير جزءاً منه.

خاتمة:

1) رواية بوابة الذكريات هي خاتمة هذا المشوار الأدبي والروائي في عالم الثقافة الغربية الفرنسية بقلم حر تحكمه قضايا الإبداع، إلا إن الغربة النفسية والبعد عن الوطن جثم طويلاً في لا وعيها الباطن يملئ عليها سطور روايتها وينثر قصص الحنين إلى النشأة الأولى، يحلم بقطعة وطن تخفف ألم الزيف، نزيف الانتماء ألا لغة ألا صوت ألا هوية

2) أبطال آسيا جبار أخذوا يحطمون جدار اليأس والانتظار والتربص محاولين رؤية وتفهم ما يحيط بهم.

- (3) حظور قوي للمسكوت عنه.
- (4) عكست روايتها سيرتها الشخصية بكل همومها ومكبوتاتها وجميع بطلاتها هن تجسيد للاوعيتها الرافض لتلك العقليات المنحطة.
- (5) أظهرت قصص آسيا جبار كل ما يتعلق بالمرأة وهنا تكمن ترجمتها لذاتها وسيرتها كما حاولت إضفاء صفة الواقعية بدمجها التاريخ عامة والجزائري خاصة.
- (6) اندمجت في الآخر لغة لأنها لغة أقوى، لغة أبهرتها ودرجت عليها منذ الصغر، لغة لا يفهمها إلا قلة من المثقفين لغة أعدتها للآخر كي يبحر معها إلى عالم المسكوت عنه.
- (7) استعمالها المكثف للألفاظ بعينها يدل بطريقة أو بأخرى على نفسية الكاتبة وغربتها الوجودية.
- (8) الحقول الدلالية لروايات جبار دارت حول ثنائيتي (التاريخ والسيرة الذاتية).
- (9) استعمالها المكثف لما يسمى الاسترجاع (العودة إلى الخلف) فعقب كل جملة سردية تعقبها بسرد لأحداث سابقة.
- (10) استعمالها بعض الألفاظ البربرية رغم وجود ما يقابلها في اللغة الفرنسية كمحاولة لإثبات الجذور والانتماء والأصالة.

المراجع:

1. جبار، آسيا (دت) بوابة الذكريات، دار الطبع، سيدسا، سلسلة فسيفساء، دط.
2. الجبوري، يحي (2008) الحنين والغربة في الشعر العربي، الأردن: مجدلوي للنشر والتوزيع، ط1.
3. حجازي، عزت (1980) الشباب العربي ومشكلاته، الكويت: عالم المعرفة.
4. محمد خضر، سعاد (1967) الأدب الجزائري المعاصر، بيروت: منشورات المكتبة العصرية .
5. Ben Chikh : Jamel Eddine (2000) dictionnaire de littératures de langue arabe et maghrébine francophone, quarige pug 1ed.-
6. Chikhi, Baida ; les romans d'Assia Djébar office des publications Alger ; universitaires place central de Ben Aknon ()
7. Djébar, Assia (1986), lettre publiée dans présence de femme Gestes acquis Gestes conquis Alger ed Hiwar,.
8. Wikipedia.org/wiki/Assiadjebar 18 :07/25/03/2016.